تاريخ الارسال: 2018-03-05 تاريخ القبول:2018-03-06 تاريخ النشر: 2018/07/30

إشكالية العلمانية في الخطاب النهضوي بطرس البستاني نموذجا

الباحث مصطفى دحماني
إشراف أ.د.عبد اللاوي عبد الله
جامعة وهران2

المقدمة:

إذا كان البعض يعتبر بطرس البستاني(1819-1883) أحد رواد الفكر الليبرالي في الخطاب النهضوي، فهو كذلك كان رائد ًللفكر العلماني العربي،بلا منازع،لأنه أول من دشن القول في هذا الموضوع1 الذي كان في ذلك الوقت جديد ًأو غريبا، على ساحة الفكر العربي النهضوي بحكم الاحتكاك المباشر و غير المباشر بالحضارة الأوروبية الحديثة.

كان غريبا بالنظر إلى أن الفكر العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان ما يزال يجتر موضوعات القرن الرابع الهجري،هذا من ناحية و من ناحية أخرى،كانت صدمة الحداثة قد جعلته يكتشف شيئا فشيئا مفاهيم و مقولات فلسفة الأنوار. ولهذا كانت مسألة الفصل بين شؤون الدين و شؤون الدولة مسالة غريبة غير مستساغة في مناخ اجتماعي/ثقافي لا يمكنه أن يتصور وجود دولة مفصولة عن الدين.و اللافت للانتباه، أن السياق التاريخي في الشام و مصر،في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هو الإطار الزمكاني الذي سمح للعلمانية ، لفظا و مفهوما بالدخول و التموقع في الخطاب السياسي النهضوي العربي.والسؤال المطروح:ما لذي يبرر القول بفصل الدين عن السياسة عند بطرس البستاني و الدعوة إلى دولة علمانية؟

أولا:هاجس التقدم و الوحدة ينطلق البستاني من فكرة تبدو بسيطة اليوم، لكنها في تلك الحقبة تعتبر من أساسيات التنوير والعقلانية،وهي أن الشرق في حالة تأخر تاريخي، سياسيا و ثقافيا و إجتماعيا.مع الإشارة إلى أن هذا التأخر ليس قدر ًامحتوما،بل يمكن التغلب غليه و تجاوزه،ولكن بشرط الإنفتاح على الثقافة الأوروبية الحديثة و الإطلاع على الإكتشافات العلمية الجديدة و الأخذ من الفكر الليبرالي بدون مركب نقص.صحيح أن هناك بعض القيمو نمط الحياة الغربية لا يتماشى مع الخصوصية الشرقية ولكن هناك الكثير من المفاهيم و الأفكار التي يمكن إقتباسها و العمل بها،و منها يترك للعقل العربي ما يقبل و ما يرفض، ولكن هناك شيء لا يمكن رفضه و هو العلوم البحتة مثل الرياضيات و الفيزياء والكيمياء هذه العلوم على العرب اكتسابها، لأنها من أساسيات التقدم. 2هذا من ناحية، و من ناحية أخرى،يلفت البستاني الإهتمام إلى مسالة في غاية الأهمية، هي مسالة الوحدة الوطنية، و الوحدة الوطنية كما هو معروف هي إحدى إفرازات النظام الليبرالي في أوروبا في إطار ما يسمى بالدولة-الأمة حيث تحققت الوحدة الوطنية في كل من انكلترا و فرنسا و ايطاليا وألمانيا.هذه الوحدة كان يراها البستاني ضرورية وعلى إثرها يقوم التعاون و التضامن و بين أفراد الوطن الواحد. 3و الوحدة الوطنية في نظره

تتأسس على قاعدة متينة هي الإنتماء الوطني و أن كان تعدد الأديان في الوطن،بالنسبة للبعض مشكلة الواحد، فهي في اعتقاد البستاني ليست كذلك لأن الكل يحب وطنه و الكل مستعد للتضحية في سبيله.والحقيقة التي لا مراء فيها، أن صاحبنا أصر إصرارا منقطع النظير، على مبدأ الرابطة الوطنية رافضا رفضا باتا الانتماءات التقليدية القائمة على عنصر الطائفية، و كان ذلك واضحا عندما لم يقبل أن تطأ قدم الطائفية في مدرسته "الوطنية"التي أسسها عام 1863، وهي مدرسة و الحق يقال كانت تدار وفق مبدأ الحرية الدينية و الجامعة. الوطنية. 4وعندما ووقعت أحداث 1860 الطائفية/الدامية، و التي تركت جروحا غائرة في الجسم السوري/ اللبناني لم تندمل حتى اليوم، هذه الأحداث زعزعت فكر و عقل البستاني، و أصدر على إثرها إحدي عشرة عددا(11) من مجلة " نفير سوريا "في نفس السنة التي اندلعت فيها هذه الفتنة الطائفية5 و بالمناسبة ساهم الأمير عبد القادر الجزائري في إطفاء نيران هذه الأحداث المروعة.و لا نذيع سرا إذا قلنا أن مجلة نفير سوريا كانت أول نشرة ظهرت في سوريا، و في هذه المجلة / النشرة كان البستاني يستهل أعدادها بنداء ".. يا أبناء الوطن.. " وبنفس الإحساس و الشعور كان يختم بتوقيع "..من محب للوطن.. "5وما يلفت النظر في هذه النشرة ،أن صاحبنا كان يتوجه إلى سائر أبناء الوطن بكل انتمائهم الطائفية، وكان يخاطبهم باعتبارهم ينتمون إلى أمة واحدة، و لم يتوجه إليهم على أساس طائفي.

ثانيا: الولاء للدولة و الوطنو من منطلق الانتماء للوطن وصل البستاني إلى نتيجة أساسية هي انه لا يجب الخلط بين الأمور الدينيةو الشؤون السياسية، بين القضايا الإلهية و القضايا المدنية.وإنطلاقا من هذا المبدأ، ميز رائد العلمانية بين التدين الصحيح و التطرف الديني، و لهذا شتان ما بين التدين المبني على أسس سليمة و قواعد أخلاقية سامية تؤدي إلى تكريس روح الاحترام المتبادل بين المعتقدات ويسري بين الطوائف سلوك التسامح،و بين التطرف الديني و التعصب المذهبي،الذي يقود مباشرة إلى إلى إشعال نيران الحرب الأهلية وإذكاء جذوة الفتن. و بناء عليه دعا مؤسس المدرسة الوطنية أبناء سوريا الكبرى كافة إلى طي صفحة الماضي و في نفس الوقت التطلع إلى المستقبل و التفكير في الغد، وذلك بالنظر إلى أنهم".أعضاء عائلة واحدة، أبوها الوطن و أمها الأرض و خالقها واحد هو الله، جميع أعضائها من طين واحد و قد تساووا في المصيرو إلى مآل واحد.. "6معنى هذا الكلام،أن سوريا الكبرى هي الوطن، بالنسبة للبستاني و أن الكل أبناء الوطن، يشتركون في الأرض ولهم نفس العادات الاجتماعية/الثقافية و يتكلون نفس اللغة.وعلى هذا الأساس،فالعيش المشترك بين جميع الطوائف يبنى جوهريا على قاعدة حب الوطن،و منها تأتي المحبة بين أبناء الوطن الواحد و التي لن تتجذر بدون مبدأ في غاية الأهمية هو حرية الاعتقاد الديني الذي يرتبط بدوره بمبدأ لا يقل أهمية هو المساواة، أي أن الكل سواسية في الحقوق و الواجبات،بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. 7و كل ذلك يصب في خانة التقدم و التمدن عند البستاني، ولكن مشروط دائما بمبدأ الفصل بين مجال الدين و مجال السياسة.و في هذا الصدد يقول"..ما دام قومنا لا يميزون بين الأديان التي يجب أن تكون بين العبد و خالقه والمدنيات التي هي الإنسان و ابن وطنه أو بينه وبين حكومته و التي عليها تبنى حالات الهيئة الاجتماعي و النسبة السياسية بين هذين المبدأين المتميزين طبعا و ديانة، لايؤمل نجاحهم في أحدهما و لا فيهما جميعا.."8و من هذه الزاوية،لا بد من ".وضع حاجز بين الرئاسة أي السلطة الروحية والسياسية أي السلطة المدنية، و ذلك لان الرئاسة تتعلق ذاتا و طبعا بأمور داخلية تابثة لا تتغير بتغير الأزمانو الأحوال بخلاف السياسة فإنها تتعلق ذاتا وطبعا بأمور خارجية غير ثابتة و قابلة للتغير والإصلاح

حسب المكان و الزمان والأحوال،لذلك كان المزج بين هاتين السلطتين المتميزتين طبعا و المتاضدتين في متعلقاتهما و موضوعهما من شأنه أن يوقع خللا بينا و ضرراً و اضحا في الأحكام و الأديان حتى لا نبالغ إذا قلنا انه يستحيل معه وجود التمدن و حياته و نموه."9

ثالثا:الدين لله .. و السياسة للجميعإنه خطاب علماني واضح و محدد المعالم، خطاب يدعو صراحة إلى فصل الدين عن الدولة، وهذا الفصل شرط جوهري من شروط النهضة وعامل مهم من عوامل التمدن.هذه هي الخلاصة التي وصل إليها البستاني و هيأن وظيفة الدين تختلف عن وظيفة الدولة ومهمته تتمايز عن مهمة السياسة، الدين يهتم بالجانب الروحي والدولة تخدم شؤون المواطنين والسياسة تحل مشاكلهم الزمنية.و الحق أن هذه الفكرة أي فكرة العلمانية، التي تفتق عنه ذهنه، لم تأتي من فراغ و لم تكن من وحي الخيال،بل هي نتاج مشاهداته على المباشر الاقتتال الدائر رحاه طائفتين دينيتين، الدروز من جهة النصارى من جهة أخرى .

و على العكس مما ذهب إليه أحد الباحثين من أن الدعوة إلى العلمانية عند البستاني ليس لها ما يبررها، لم يكن هناك ما يؤسسها، باعتبار أن الدولة التي عاش فيها رائد العلماني العربية لا تجمع بين السلطتين الروحية والزمنية و باعتبار كذلك أن المجتمع الإسلامي تاريخيا ربط السلطة الزمنية بالسلطة الروحية في القرون الوسطى .10و من البديهي القول،أن الإمبراطورية العثمانية كانت تجمع بين السلطتين الروحية و الزمنية، كانت تجمع بين السلطنة و الخلافة،وبعبارة اصح نقول أن السلطة السياسية كانت تستخدم السلطة الدينية و تديرها كيفما تشاء.و لم تكتف بذلك بل نصبت نفسها الناطق باسم الإسلام السني، و على هذا الأساس قمعت كل من يخالف ذلك.في إطار صراعها مع الدولة الصفوية الشيعية.هذا من جانب و من جانب أخر،عرف تاريخيا ما يسمى بالسلطة الروحية، سلطة الفقهاء و رجال الدين،وإلا كيف نفسر المحن التي تعرض لها الأدباء والفلاسفة و علماء الكلام عبرالتاريخ الإسلامي.و مانخلص إليه،أن بذر بذور الفكر العلماني في الحقل الثقافي العربي،لها ما يبررها، ليس فقط أن الدعوة جاءت في أعقاب الفتنة الطائفية التي إندلعت في جبل لبنان بين المسيحيين و الدروز11.و التي إمتدت إلى دمشق عام 1860،بل أن السياسات التركية القائمة على اضطهاد الأقليات المسيحية، و السياق التاريخي العالمي كان يدفع دفعا إلى ذلك،ثم أن هذه الدعوة ، كانت موقفا واضحا و محددا من الطائفية التي كانت ومازالت تنخر عظام المجتمعات العربية قديما وحديثا، كما أن الطائفية مرض عضال لا شفاء منه، إلا بتطبيق الوصفة الطبية المتمثلة في العلمانية.فالعلمانية في نظر البستاني هي التي تنسج خيوط اللحمة الوطنية و تدعم الوحدة الوطنية و تجمع شتات أبناء الوطن الواحد. 12ومن الواضح تماما،أن بطرس البستاني، رغم خطابه الدهري و دعوته الصريحة إلى الفصل بين الدينو الدولة ،فهو لا يستبعد الدين تماما من المجال العام كما كان شأن العلمانية الفرنسية ، بل بالعكس يرى أن لهدور مهم، لأن التدين الصحيح يقود إلى التمدن الصحيح،فلو كان للنصارى و الدروز تدين صحيح و تمدن كاف لما وقعت الحرب الأهلية الطائفية عام 1860.و على هذا الأساس ، فالمعادلة بسيطة عند البستاني التدين الصحيح يفرز تمدن صحيح،و بالتالي ينتج فهما صحيحا للدين.هذا من ناحية ومن ناحية أخرى،التمدن يجعل الناس،كافة الناس من مختلف الملل و النحل، يدركون أن الدين أي دين لا يفرض بالقوة،و إلا فقدمعناه و جوهره،لأن الإنسان حر في إعتقادهكما أن حرية الضمير هي أساس العمل الأخلاقي.ولهذا ليس من مصلحة الدين أن يرتبط بالسياسة و لا بالشؤون الدنيوية والمصالح المادية للبشر ، لأن هذا الارتباط يقود حتما إلى التعصبو

التطرف و الإرهاب. والتطرف و العنف يمحوان محوا كافة أشكال المحبة و لا يترك الفرصة للإخوة كي تنمو و تتجذر ويقضي قضاء مبرما على مفهوم التسامح.و لايتوقف الأمر عند هذا الحد،بل أن التطرف الديني يدفع دفعا إلى نشر خطاب الكراهية وذيوع ثقافة الحقد على الأخر المختلف.

الخاتمة:و غني عن البيان القول أن الأفكار لا تموت،و أفكار البستاني و مقولاته الدهرية وطروحاته العلمانية لم تمت بل وجدت من يلتقطها و يبني عليها و يؤمن بأهميتها و يدرك راهنيتها للمجتمعات العربية في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين.و ليس هذا فحسب ،بل يذهب بها بعيدا ، خاصة في مجال التحرر الإجتماعي والسياسي، و في إطار نقد الفكر الديني .كما أن هذه الأفكارو المقولات جاءت في سياق تاريخي كانت فيه الثورة العلمية في عز فورانها، و كانت فيه الفلسفات الوضعية في عز تألقها. 13.و تجلت هذه النزعة التحررية/النقدية بشكل و اضح عند ثلة من المفكرين العلمانيين من لبنانأبرزهم شبلي شميل(1850-1917) و فرح أنطون (1874-1922).وعند بعض المثقفين المصريين نذكر منهم سلامة موسى(1888-1958)و إسماعيل مظهر(1891-1962)و زكي نجيب محمود(1905-1993) و فؤاد زكريا(1927-2010)

الهوامش:

1-ألبرت حوراني:الفكر العربي في عصر النهضة.دار النهار للنشر ط3بيروت 1977 ص292

2-ناصيف نصار:نحو مجتمع جديد.دار الطليعة ط 4 بيروت 1981ص26

3-المرجع نفسه ص27

4-المرجع نفسه ص18

5-بطرس البستاني :نفير سوريا ذكره ناصيف نصار في كتاب نحو مجتمع جديد ص 24

6-المرجع نفسه ص 30

7-المرجع نفسه ص 26

8- بطرس البستاني: ذكره محمد عابد الجابري في كتاب الخطاب العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية ط4 بيروت 1992 ص68

9- المرجع نفسه ص68

10- ناصيف نصار:المرجع نفسه ص17

11- المرجع نفسه ص29

12- المرجع نفسه ص 23